طليطلة – مدريد – قرطبة

إلى روبرتو بولانيو*

آخذ قهوة الصباح الأولى
في محطة الأتوبيس، ناظرا
من خلال زجاج البار:
الضباب يبدأ في تغطية
كافة القصر*
بينما على الضفة الآخرى من النهر
تحفظ الأكاديمية* محيطها
المبقع بالضوء بالكاد.
من هناك كانت تبث بالأمس
محطة الإذاعة ليلة القديسة إنماكولادا،
حينما كانت الفتيات يدخلن الحياة للمرة الأولى:

---

* روبرتو بولانيو: (سانتياجو دي تشيلي 1953–برشلونة 2003)، شاعر وروائي من التشيلي وأحد أهم الأصوات في الأدب المكتوب بالإسبانية في القرن العشرين. م.

* القصر بالإسبانية:
Alcázar

ملابس تشريفات عسكرية، سجق شفاف،
عناكب معلقة –رقصة سلاح المشاة
جاوزت الخمسين عاما.
يتم الخلط بين حفلات المتدينات وغير المتدينات
ويضاف إليها تاريخ الدستور، رأيت
حينذاك صورا مطبوعة في بيتوريا:
الأحزاب المناوبة* والسلطة
–الأسقف الكاثوليكي، الجيش،
الحرس المدني، القضاة–
كانوا يحتفلون معا بوجوه جادة،
تقريبا مقطبي الجبين.
انتهيت لفوري من مهاتفة صديق،
والذي عندما بدا أن طائرته
كانت ستسقط متفتتة فوق أمريكا
احتضن كارولينا* والطفلين في الظلام،
بين الصرخات: "شعرت، قال، بالواقع، بكثافته وكنت أختنق".

---

* إشارة إلى أكاديمية المشاة العسكرية في طليطلة. م.
وهو نوع من القلاع أو القصور ينتشر في مدن إسبانية كثيرة حيث كان يقيم فيه الحكام المسلمون في عصر ملوك الطوائف، والقصر المشار إليه في القصيدة هو قصر طليطلة.م.

* الأحزاب المناوبة التي كانت تتناوب السلطة في إسبانيا في القرن التاسع وكان هناك حزبان كبيران أحدهما محافظ ةالآخر ليبرالي. م.

* كارولينا زوجة روبرتو بولانيو.م.

هكذا كنت أقضي ليلتي، والضباب يغلف الأبراج الحمراء ويخترق
أشجار السرو في "ورشة المورو"*.
ربما تكمن الديمقراطية في هذا: أن يواصلوا ما يقومون به دائما،
بينما نحن –تسامحا– لا يمكننا أن ننتقد ذلك.
لكنني أنتبه إلى أنه من الصعب معرفة من "هم" والأصعب
معرفة من "نحن"؛ منذ عدة ساعات والناس تحوطني
ولا أتمكن من تنظيم صيغة الجمع.
في المترو يتقدمني رجل أسود وابنه وهما يتحدثان بالإسبانية؛
تناسب الألوان يتغير تحت الأرض.
في الطابور الطويل لإحدى الخدمات العامة
معظم الواقفين من العجائز،
كنا ندخل واحدا وراء الآخر.
أو الاختلاط المبرقش للكلمات
في القطار: كتلة التوافه،
القطع مع العجائبي، الترك الحاد
للسماعات على أحد المقاعد.
نعبر ببلد فارغ، مشبع بالخطابات.
حقول الزيتون تصبح أكثر رطوبة

* ورشة المورو: قصر ينتمي إلى الفن المدجن في طليطلة، والفن المدجن هو فن العـرب الذين دجنوا في الأندلس بعد إعادة غزوها من قبل الإسبان. م.

ضائعة أكثر في الضباب كلما اقتربت الجبال،
الساعة تجلب الشك فيما إذا كنا سنلحق بشمس الجنوب
قبل أن يحل المساء.
الأصوات تعيدني إلى ذكرى محادثة التليفون:
تحدث كثيرا عن إقامته في فنزويلا،
عن تناقضات تشافيز،
عن الأمل والتشاؤم؛ إنه شاب جدا،
كان يكرر مستغربا، ولم يتوقف عن استحضار
فضاء عام، ليس فقط من أجله ومن أجلي،
بل من أجل نحن جمعية كانت تخرج خاسرة دوما،
كانت ستعود لفعله ربما،
لكن استعمالها كان ممكنا. رغم ذلك
اعترف لي أن روايته الحوارية تحولت في النهاية
إلى مونولوج،
فقط من بعض "هو" يمكننا قول "أنا".
من نفق إلى نفق، وبضغط الهواء في الأذنين
تأخذ الأشجار في التغير: تستحيل أشجار البلوط
إلى أشجار زيتون وأشجار الصنوبر إلى أشجار بلوط،
كلها أطياف شبحية بين برك متواصلة.
عندما جاءوا كان يتساقط رذاذ خفيف
ومن هنا جاءت الأسماء
يمشي في ضباب، يأتي في ضباب، رذاذ...

تهدئة طفل، تحويل البكاء إلى ثرثرة
حتى يعود الفم ليكون بكاء،
يأخذه الأب من وسطه.
في ضواحي قرطبة لا توجد شمس كذلك،
تفتر الرحلة كما لو أنهم صنعوا الفراغ في مخرطة.
والآن أقرأ في نورمان براون*:
ليس للديموقراطية صروح.
لا تصك ميداليات. لا تحمل رأس أي إنسان في العملات.
إنها محطمة الأيقونات.
الحلم جمعي، حتى لو كان مستحيلا
معرفة من يحلم. يتوقف القطار،
يأخذ في التكيف مع ضيق السكة الحديدية.
سوف أحكي لاحقا بقية الرحلة.

---

* نورمان بروان كاتب أمريكي ولد في المكسيك عام 1931 وتوفي عام 2002 في كاليفورنيا. م.